الحُـــرّ


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الآثار الكاملة ـ ١٧ـ

الحُرّ

إنسان بين خيار الفاجعة والفلاح

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

هاشم محسن الأمين

حققه وحرّره للنشر

محمد حسين بزي

دار الأمير

إسم الكتـاب : الحرّ إنسان بين خيار الفاجعة والفلاح

إسم المؤلـف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : هاشم محسن الأمين

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

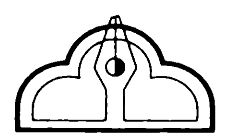
الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-26-5

الطبعة الأولى : ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشـر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب: 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا . . ، أمّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

«الحُرّ حُرٌّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإن تداكت عليه المصائب لم تكسره، وإن أُسر وقهر واستبدل باليسر عسراً»

الإمام الصادق عليه السلام

مقدمة

ولد علي شريعتي في شهر كانون الأول من العام ١٩٣٣م، في قرية «مزينان»، وهي من قرى سبزوار، احدى مدن محافظة خراسان، التي تقع على حافة الصحراء الكبرى المعروفة باسم «دشت گوير».

والده محمد تقي شريعتي، أحد المفسرين المعروفين للقرآن الكريم، ومن كبار المفكرين والمجاهدين الإسلاميين، والمؤسّس «لمركز نشر الحقائق الإسلامية»، الَّذي اضطلع بمسؤولية توعية الجماهير بالدور الحقيقي للدين في المجتمع.

بدأ علي شريعتي نشاطه السياسي مبكراً، حيث انضم إلى جناح الشباب في الجبهة الوطنية وهو لم يزل بعد طالباً في المدرسة الثانوية.

انضم شريعتي عام (١٩٥٤) إلى حركة المقاومة الوطنية ـ بعد سقوط حكومة مصدق ـ التي أسسها كل من آية الله

الزنجاني وآية الله الطالقاني ومهدي بازركان.

دخل شريعتي عام (١٩٥٤) كلية الآداب بجامعة مشهد.

أنشأ في الجامعة حلقات دراسية لمناقشة قضايا الإسلام، مستعيناً بجهود والده في هذا المجال.

سجن لمدة ستة أشهر، ولم يكن بعد قد تخرج من الجامعة، بعدما ضُرِبت حركة المقاومة الوطنية بعنف من قبل السلطة وتم تشتيتها، عام (١٩٥٨).

بعد تخرّجه من الجامعة بدرجة امتياز في الأدب، أُرسل في بعثة دراسية إلى فرنسا عام (١٩٥٩). وهناك واصل نشاطه السياسي إلى جانب دراسته، فأسس حركة تحرير إيران ـ فرع أوروبا، التي أنشأها آية الله الطالقاني ومهدي بازركان عام (١٩٦١).

في فرنسا، درس شريعتي الأديان وعلم الإجتماع والآداب، واختار علم الإجتماع الديني ميداناً لتخصصه، وكأنه كان يستشرف المستقبل عندما رأى أن الشعوب الإسلامية المقهورة لن تتحرك إلاّ بالدين، ولن تنجو إلاّ بالإسلام، فنال الدكتوراة في علم الاجتماع الديني، كما نال دكتوراة ثانية في تاريخ الأديان.

ظل علي شريعتي مناضلاً من أجل تنظيم الحركة الإسلامية

في الخارج ولعب دوراً في تكوين النوىٰ الأولى للجمعيات الإسلامية للطلبة الإيرانيين في الخارج.

كذلك، كان من أبرز النشطاء في دعم الثورة الجزائرية، وتنظيم التظاهرات ونشاطات التضامن معها. وقد تعرّف هناك على مناضلي العالم الثالث من أمثال ايماسيزار، وفرانز فانون، الذي ترجم للفارسية قسماً من كتابه «معذبو الأرض».

عاد شريعتي إلى إيران عام ١٩٦٣)، وقد أُلقي القبض عليه على الحدود. ثم أطلق سراحه بعد فترة وعين معلماً في المدارس الابتدائية في احدىٰ القرى النائية، توهيناً لشخصيته العلمية والآكاديمية.

أصَّل شريعتي نشاطه الثقافي في منفاه، وأخذ يلقي الدروس والمحاضرات العامة ذات الهدف التنويري الديني.

كان صوت شريعتي مخلصاً عالماً بعيد الغور واضحاً في نفس الوقت، بحيث كان عدد المشاركين في ندواته ومحاضراته لا يقل عن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مشترك.

تستسلم السلطة لنفوذ شريعتي، فتنقله مدرساً في جامعة مشهد. وهناك يواصل شريعتي نشاطه الفكري والثقافي، ويتألق، طيلة الأربع سنوات والنصف التي قضاها في الجامعة، استاذاً مؤمناً أصيل الفكر والثقافة.

ضاقت السلطة ذرعاً بنشاط شريعتي، فتقرر إبعاده عن الجامعة وإحالته على التقاعد.

وفي العام (١٩٦٩)، تأسست في طهران حسينية الإرشاد، لتصبح بعد فترة، مركزاً لنشاطات علي شريعتي، حيث قام بإلقاء محاضرات منتظمة حول الإسلام وتاريخ الشيعة، مبلوراً من خلالها منظومة أفكاره حول الإسلام، والتي أراد منها تصحيح مفاهيم سائدة خاطئة عن الإسلام، كما أراد منها شحذ الإسلام سلاحاً للتعبئة الفكرية والسياسية في أوساط الشباب.

التفَّ حول حسنية الإرشاد ونشاطاتها جيل كامل من الشباب وكانت محاضرات شريعتي تطبع كراريس وتسجل أشرطة لتوزّع بالآلاف في كافة أنحاء إيران. لقد حوّل المجتمع كله إلى جامعة يلقي فيها دروسه ومحاضراته.

لا تجد السلطة بداً من اغلاق حسينية الإرشاد عام (١٩٧٣)، واعتقال علي شريعتي ووالده، ليبقىٰ في السجن ثمانية عشر شهراً متعرضاً لأعتى صنوف التعذيب.

أُطلق سراحه عام (١٩٧٥)، بعد أن تدخل من أجله المسؤولون الجزائريون. ولكنه وضع تحت المراقبة ومنع من أية نشاطات علنية.

غادر طهران متوجهاً إلى لندن مروراً ببلجيكا وفرنسا في

آذار عام (١٩٧٧)، ليبدأ من لندن مرحلة جديدة من النشاط خارج البلاد، بعد أن سدت في وجهه كل السبل في إيران.

قتل بعد شهر من وجوده في لندن بطريقة غامضة. وقد نقل جثمانه إلى سوريا بمبادرة من الإمام السيد موسى الصدر، ليدفن إلى جوار مرقد السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

خلّف الدكتور علي شريعتي ما يزيد على المائة عمل، ما بين فلسفي وفكري وأدبي، تتخذ كلها من جذوة الإسلام القبس الذي يضيء الطريق أمام جماهير الشباب في صفوف الحركة الإسلامية في إيران والعالم، ليكون في موته أكثر حياة وأكثر حضوراً.

يعرض القدر أحياناً كثيرة من الحسن والأناقة في ما يوجده من مخلوقاته العجيبة المعجزة في مصنع خلقته العظيم ـ والذي يدور ليل نهار، يوجد الصخور والأزهار والأشجار والأسماك والطيور والحشرات وذوات الأربع والسباع والدواجن والأدميين، بما لا يعد ولا يحصى، وكلّه مبني على نحو رتيب متشابه ـ يحدث أحياناً أن يبدو له الخروج عن مألوف عادته فيباشر صنعة خاصة تشذ عن ذلك النمط العام، ويلقى إلى الوجود بفن بديع أنيق: يتغنى بشعر، أو يخلق أثراً فينا، أو يجلو ذوقاً مرهفاً وجمالاً فتّاناً.

إنه يشبه منتجاً يصنع سلعاً استهلاكية كلها على نحو واحد وقالب معين، معدّة لملأ الأسواق. ولكن بين حين وآخر ومن أجل إظهار فنه للجمهور، أو تجسيد أصالته، أو تحقيق لذّة روحية للبعض من صفوته، أو تقديمه هدية إلى البعض من أعزائه، أو قل لتحقيق رغبته وهوايته، يصوغ بعضاً منها على نحو آخر، يباشر صياغته بنفسه ويتعهده بيده ويبدع فيه ويبتكر. هذا

الطراز من الإنتاج والذي يُعرفّ بـ«الشخصية» لا بـ«الكمية»، لكل واحد منه اسم خاص. وهو فريد لا بديل له، ويبقى مكانه خالياً عند فناءه، لن يملؤه شيء آخر. إنه أثر فني لا نظير له ولا بديل عنه، وليس «سلعة استهلاكية» من سلع عديدة رتيبة.

مثل هذا إنما وجد ليكون، في الأعم الأغلب، النموذج الذي يتجلى في المواجهات والمعارض، بغية المعرفة والنظر والتأمل، لا ليخزن في المستودعات ويعرض في الأسواق.

وبكلمة واحدة يمكن القول أن لمثل هذا، بين أفراد نوعه، «شخصيّة» وخصائص فردية تميّزه عن غيره. أن كلا منه مثل أعلى لا شبيه له. فـ«كوه نور» بين الجواهر، و«ذو الفقار» بين السيوف، و«جدار الصين» بين الأسوار، و«سد ذي القرنين» بين السدود، و«الكعبة» بين البيوت. و«الأرض» بين السيارات التي تدور حول شمسنا و. . .

. . . «الحُرّ» بين جميع الشهداء الذين عرفهم تاريخ الإنسان، وعرفتهم الثقافة الإسلامية، الشهداء الذين اختاروا لأنفسهم أن تكون نثار العشق، وهي في طوافها حول الحقيقة.

انظر إلى المسرح(١)، ترى يد القدر قد نسّقت الكيفية التي

---

(١) لنفترض أن قضية الحر لم توجد في التاريخ، وإنما نحن نريد أن نتصورها، مجموعة من المخرجين وكتاب السيناريو والمسرحيين وكتاب القصة يصورون القصة وفق أسمى القيم الإنسانية وأروع الخيال وأقواه، كيف ستكون القصة؟

أرادتها لتوجد مثل هذا الأثر تنسيقاً فنياً كاملاً، وأنها قد اختارت من «المطلق» كل ما تعاطته من أفعال وعلل، تبذل في صنع خِلقَةٍ لا مثيل لها. فكأنها قد وظّفت كل ما لديها لتُحْكم موضوع الرواية على أمتن ما يكون الإحكام، وتجلو وجه بطلها على أنصع ما يكون الإشراق وتخلق أسمىٰ أثر تمنحه أقوى تأثير.

الحديث عن «اختيار»، والإختيار أرفع تجلّيات الوجود الإنساني. أنه معنى الإنسان وفلسفة وجوده. وهو، في نفس الوقت، أشق مسؤولياته.

ولكن أيّ اختيار؟ الإنسان هو أبداً في حالة اختيار. أنه يختار في كل يوم مراراً وتكراراً: العمل، القسم الدراسي، الصديق، التسلية، المسكن، الزوج، الإتجاه السياسي، المركز الإجتماعي، الطريق، الوسيلة، الزي و. . . حتى صباحاً إذ يريد الخروج من البيت يمضي إلى تناول عمامته أو قبعته، أو ربطة عنقه، أو عصاه. . .

ولكن، لا! ها هنا أسمى وأشق وأثقل اختيار، وهو في نفس الوقت، أوجع اختيار:

«الحق» أو «الباطل»!

كذلك، فهو ليس اختياراً قائماً على جدل فلسفي علمي،

أو كلامي فقهي مذهبي، يدور على القول بصحيح «الدين» وزائفه، أو على مشاحنات «السياسة» أو التفرقة والتفاضل بين «البشر». أو حرية «الإنسان» وعبوديته.

هنا إنسان مخيّر بين «الفاجعة» و«الفلاح» يعني: أن يختار «كيفية كينونته». ولكن بأي ثمن؟ «البقاء» أو «الفناء» لذاته.

لقد أقام صانع قصة القدر، طريق الإختيار هنا على وضع بالغ في الحرج والقوة والصلابة، لينهض بمشقته وعظمته وقدرته إلى أشد ما تكون المشقة والعظمة والقدرة.

وعليه فلم يكن لبطل القصة مكاناً في نقطة «الوسط» بين قطبي الفاجعة والفلاح، فيسائل نفسه، كما يقول المولوي، «أهذا أفعل أم ذاك؟». لقد ألقيَّ به في خضم الفاجعة غارقاً فيها، و... ماذا أقول؟ إنه أداة الفاجعة. الضابط المبرز المرموق فيها. والمأمور المنتخب المجنّد لها، وآمر جيشها. الجيش الذي جاء من قصر الفاجعة، ليكر على كوخ الأمة في «هذا الليل الحالك وفي مثل هذا الخوف والهول في صميم الطوفان وقلب الدوامة»[١] الذي غمر الخلائق، ويطفىء «مصباح الهدى» ويحطم «سفينة النجاة»[٢] ويشعل النار في «مخيم الفلاح» بأمر من «قصر الفاجعة».

---

(١) مقتبس من معنى لشعر فارسي.
(٢) «إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة» حديث نبوي.

والعجيب في هذه القصة، هو أن البطل الذي يختار الفلاح إنَّما هو ذلك القائد المؤمّر على جيش الفاجعة، الضابط الذي كان مكلفاً بتَعَقب المجاهدين، على رأس دورية عسكرية، وكان أول من قطع الطريق على مسيرة «الفلق» بأمر من «الغاسق»[١]. وجاء بحرّاس «الإمامة» و«العدل» إلى مصارعهم في كربلاء، بعد أن كانوا يسلكون طريقهم إلى الكوفة، مدينة الثورة، بغية توعية الناس وانقاذهم، وليسلّم إمام الإيمان وأمل الحرية، إلى مخلب الإستعباد والكفر، بوسوسة من «الخناس»[٢]، الذي يفتن الناس بالزور، ويضع حدوداً من التمييز فيما بين الجماعات وفيما بين الأفراد من الأمة.

ومن أجل مزيد من الإحكام ومزيد من التشديد فإن «زمان الإختيار»[٣] ـ الظرف الذي تم فيه الاختيار وبهذه العظمة ـ لم يستغرق عمراً من التجربة والتأمل والوعي التدريجي، وإنما تم ذلك في ساعة من نهار، صباح يوم عاشوراء!

---

(١) ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾. الغاسق الليل الشديد الظلمة من غير قمر. الوقب، يقال وقب الظلام على الناس: أي دخل وانتشر.

(٢) هذا المعنى الذي نتصوّره للخناس، هو معنى متداول عندنا، بمعنى: ظالم ديكتاتور، خائن، جبّار مسلّط على الناس.
أما في التفسير فقد جاء المعنى على أنه المقصود هو قيصر الروم. وبذلك قد جُسّد المعنى أيضاً.

(٣) اختياره هذا، هو غير اختيار شخص أدرك عصر الإمام عليّ والحسن، وعايش الأجواء المفعمة بالقيم والمفاهيم.

أي في الساعة الأخيرة، في آخر فرصة، في لحظات تمر مرَّ الريح والبرق، وكل شيء يمضي وينتهي. وقد بلغ الأمر ذروته، دقائق ما قبل الإنفجار، الدقائق المؤلمة المملوءة بالإضطراب![١]

ولأجل أن يظهر التناقض والتضاد بين القطبين في أوّج حدّته، التناقض والتضاد بين قطبي الخير والشر، البشاعة والجمال، الحق والباطل، الطهارة والخباثة، الإستقامة والزيغ، العدل والجور، الحرية والعبودية، الرشاد والغيّ، ومن ثم الفلاح والفاجعة، كان يتحتم على المخرج اليقظ الفنان أن يوصل قوة الإثارة والتأثير إلى أقصى مداها. ولذلك كان عليه أن ينتقي لكل من القطبين أوفر وأنفذ وأعمق قوة يمثّل بها مفاهيمه ويجسدها ويجسمها: المفاهيم الإلٰهية والمفاهيم الشيطانية[٢].

---

(١) نحن لدينا الآلاف من مثل الحر، الآلاف، وعلى العموم يسمون بالتوابين. كل واحد منهم «حر» ولكن بعد وقت من التأخير. لقد قتلوا مثل الحر أيضاً. وهكذا نرى أن مسألة الوقت واختياره المناسب إلى أي حد مهمة.

(٢) بطل يريد أن يختار واحدة من الحالتين، وانموذجاً من الأنموذجين. وهكذا بالنسبة للمخرج والكاتب فإن انتخابهم لشخصياتهم مرهون بمدى قدرتهم على تجسيد كلا الحالتين أو القطبين. وسوف نرى في هذه القصة من هم هؤلاء. افترضوا أننا نحن نريد أن نختار، نريد أن نكتب قصة.

في أحد القطبين «برومثيوس» وفي الآخر العفريت؟ الملك والشيطان؟ «مهر» إلٰه الخير والبركة، و«سست» إلٰه الشر والكراهية؟

كلا، إن هذه الوجوه تجعل القصة ترفاً وميتافيزيقية. القصة تروي حديثاً عن واقع انساني، فينبغي لها أن تجلى بوجوه إنسانية واقعية، وأن يكون لها وجه بشري وملامح واقعية.

رستم وأفراسياب؟ فريدون والضَّحَّاك[١]؟ اسپارتاكوس وكراسوس[٢]؟

لا فهذه وجوه قومية طبقية ولها توجهات وطنية، وهذه القصة يجب أن لا تحد بموطن معين وأرض معينة، فهي للبشرية جمعاء، ويجب أن تعطي مجالاً عالمياً ومحتوىً إنسانياً شاملاً.

هابيل وقابيل؟ الخضر والإسكندر؟

كلا. يجب أن لا نأخذ المثال من وجوه ما قبل التاريخ، أو

---

(١) الضحّاك: أمير اسطوري. أسر جمشيد ملك الفرس وعذابه، يمثله الفنانون الفرس حاملاً الأفاعي. «الناشر»

(٢) كراسوس (ليقنيوس) Crassus (١١٥ ـ ٥٣ ق.م) أحد حكام روما الثلاثة مع بومبيوس وقيصر ٦٠ ق.م. حاكم سورية ٥٤ ق.م. قضى عليه أُوردوس، ٢ ـ الأرشاي في معركة حرَّان ٥٣ ق.م. «الناشر»

الميثولوجيا والأساطير. فذلك يضعف الصفة الواقعية للرواية، ويجلو وجوهاً مجهولة بعيدة، ومن ثم فهي قليلة التأثير. شخصيات هذه القصة يجب أن تكون معروفة قريبة محسوسة، يجب أن تجري في ثنايا القصة دماء الحياة وحرارتها وأن يكون لها حجم من الحقيقة.

إبراهيم والنمرود؟ موسى وفرعون؟ المسيح ويهوذا؟ يحيى[١] وهيرودس[٢]؟...

وهذا غير مقبول أيضاً. أن القارىء والمشاهد يجد نفسه أمام شخصيات خارقة للعادة. شخصيات من عالم الآلهة والميتافيزيقيا. شخصيات استثنائية، وأبطال ليسوا من جنسنا. لقد جبلوا من ماء وتراب آخر، ولهم جواهر وذوات وعناصر وأصول متفرقة، وهذا يقلل من مغزى الرواية وما تلقيه من أثر. وذلك أن الناس اعتادوا أن يعدوا الأنبياء من طينة تغلب عليها الصبغة الملكوتية واللاهوتية السماوية مما وراء الطبيعة، وأن

---

(١) المقصود أنه يوحنا المعمدان ـ انظر الهامش التالي ـ «الناشر»

(٢) هيرودس اسم أربعة من ملوك اليهود. ١ ـ الكبير (٧٢ ـ ٤ ق.م) ولد في عسقلان، ملك اليهودية ٤٠ ـ ٤ ق.م، اعتنى بجمالية هيكل أورشليم، وبنى أيضاً هيكل السامرة، وإشتهر بحبه للعمران. ٢ ـ أنتيباس إبن هيردوس الكبير ـ (٢٠ ق.م ـ ٣٩م) وهو الذي أمر بقطع رأس يوحنا المعمدان، وهو المقصود في المتن. «الناشر»

يتصورهم فوق طينة الإنسان. ومن ثم لم تخامرهم أبداً فكرة تقليدهم والإِقتداء بهم في علومهم وأعمالهم، وإن كانوا يمجدون قيّمهم ويقدسونها، إنهم يرونهم متصفين بصفات غيبية غير بشرية، ومن ثم فمن المُحال تجسيدهم في حياة الناس.

والحال أن الفلسفة الإنسانية لهذه القصة، إنّما هي في فحواها التربوي التعليمي، فيما تظهره من قدرة عجيبة في الإنسان على تغيير نفسه وبصورة ثورية، متخلياً عن كل خصاله الإجتماعية والطبقية، بل والموروثة أيضاً.

وفيما تدل عليه من معجزة إلٰهية تصدر عن وعي وإرادة إنسان عادي، بل إنسان مدنّس ومسيّر. ولذلك ينبغي أن يكون بطل القصة إنساناً كسائر الناس، وهو، إلى ذلك، إنسان مثقل بالعار والخطيئة، وأن يتم اختياره من بين النماذج التاريخية الواقعية، والتي هي قريبة منا ولها صلة بالبشرية جمعاء.

بناء على هذا فإن دائرة الإنتخاب محدودة.

وفي هذا المضمار، فإن التاريخ الإسلامي هو من أغنى الثقافات وأكثرها حيوية ومعرفة، وأقواها سنداً وواقعية. وهو مليىء بالمتضادات والتجارب والصراعات والحوادث، والأحاسيس والقيّم الإنسانية.

تياران متضادان دائماً وعلى الدوام يرافقان مسير البشرية

منذ البدء، ويقسمان المجتمع الإنساني، في جميع أبعاده، إلى قطبين إثنين، وهما في الإسلام يتجسدان في : الوجه الأموي والوجه العلوي.

فما بين هذين الحزبين، ترعرعت «الفاجعة» و«الفلاح» وبلغتا أوجهما، وبعُدت مسافة التضاد بينهما إلى ما لا نهاية.

وفي هذين الحزبين كان يتجلّى الوجهان المتضادان لتلك العصور، وقد صار كل منهما مظهراً واضحاً كاملاً لقطبه، بحيث أصبح رمزاً لما يمثل هذا القطب، وقد أُحيط بهالة اسطورية في ثقافة أُمتنا.

ومن العجيب، أن المسرح المضاد الذي امتحن به اختيار بطلنا هذا، نلحظ فيه هذين الوجهين:

يزيد والحسين!

إن هذه القصة لو أنشأها أحد كبار الكتاب المهرة، أو أخرجها مخرج فنان حاذق، بما له من سعة الثقافة والخيال والإعجاز الفني، لكانت أثراً خالداً محيّراً، يستحق «صانعها» التمجيد والإستحسان.

وها نحن نرى أنها حادثة تاريخية، وشخصياتها ذات وجود حقيقي في عالم الواقع، وفي زمان ومكان معينين معروفين،

فما علينا إلاّ أن نرفع إلى العلي القدير الذي أوجدها، كل التمجيد والإستحسان بما هو «أحسن الخالقين».

أجل، إن القدر، في صياغته المعجزة لمخلوقاته، يعرض أحياناً قدراً وافراً من الجمال والأناقة.

ما هو اسم هذا البطل؟

إنَّ ما يحسب حسابه في سيرة شخصية تاريخية، إنَّما هو دورها في الحياة لا اسمها. فدورها هو الذي يعكس قيمة وجودها ويعرّفها. أما الإِسم فليس أكثر من لفظ يطلق عليها طبقاً لرغبة العائلة وتقاليدها.

ولو أن القصة أبدعتها ذهنية كاتب وصاغها فنه، لا ننتقي للبطل اسماً بما يناسب شخصيته ودوره. وعندها فمن الطبيعي أن يسأل عن اسمه، ومعنى وموسيقى الإسم، وانسجامه مع شخصية البطل ودوره.

أما بطلنا فهو شخصية واقعية، وقد اختارت له أمّه في ساعة مولده إسماً لا ينم عن شيء سوى عن ذوق هذه الأمّ، إذ لم يكن هو، بعد، شيئاً مذكوراً.

إلاّ أن هذه الأم كأنما كانت تحدس بما سيكون لوليدها من دور ثوري بارع على أروع مسرح في تاريخ الغد، وكأنما كانت

تعرف الرسالة الفائقة التي قُدّر له أن ينهض بها، والمصير الذي هيأهُ له القدر، كما كانت، في الوقت نفسه، على مستوى رفيع من الثقافة الإنسانية والعقيدة الواعية، وقدر رفيع من الذوق والشاعرية في تذوق جمال اللفظ وعذوبته ومتانة موسيقاه، عندما انتقت لوليدها اسم «الحُرّ»[١]، الطفل الذي سيصبح محط الأنظار في الثورة الإنسانية، ومظهراً لأروع دور من أدوار الإفلات من سلاسل العبودية وإيثار الحرية.

ومن هنا كان ثناء إمام الحرية على ذوق الأُمّ في انتقائها لإسمه، ساعة وقف عند رأسه، وهو صريع على صعيد كربلاء الدامي، مباركاً استشهاده العظيم، مكرراً حُسن انتخاب الأمّ لأسمه:

«أنت الحر كما سمّتك أمّك. أنت الحر في الدنيا والآخرة»

قلما نجد في الأساطير، وقصص الكتّاب، والمسرحيات، والحوادث التاريخية، بطلاً يتصف عمله بالقدرة على الترقي وميّزة التكامل، بما يصل به إلى أن يمثل أعلى فلسفة لوجود

---

(١) كلمة «الحُرّ» في اللغة لم يقتصر معناها على ما هو خلاف العبد والأسير، بل لها معانٍ عديدة معبّرة منها: الكريم. الحُرّ من كل شيء: خيارُه وأعتقه وطيّبهُ. فرسٌ حُرّ: أي عتيق الأصل. حُرّ الوجه: ما بدا من الوجنة. يقال «لطمه على حُرّ وجهه» أي على مرتفع خده، وهو أكرم موضع في الوجه وأحسنه (حتى هنا يمثل العظمة والإمتياز). حُرَ الأرض: أطيبها... الخ.

النوع الإنساني، وأعظم رسالاته الإلٰهية، تمثيلاً كامل الوضوح والدقة[١].

أما الحُرّ، فقد كان له دور فائق يختصّ به وحده، يصوغ حياته الوجدانية، وشخصيته الفردية، ووجوده الثوري الخاص. ويرسم له أيضاً حياته الإجتماعية ومسؤوليته الفكرية واتجاهه العسكري والسياسي.

إن دوره هذا كان أيضاً، في نفس الوقت، تعبيراً عما كُلِّف به الناس كافة نحو عالمهم هذا، ونحو تاريخهم، ومجتمعهم، وذواتهم، من رسالة عامة ومسؤولية مشتركة وامتياز في الوجود. بل كان تعبيراً عن هذه القيّم في أروع وأقوى وأكمل تجلياتها، وذلك أمر تفردت به جبلة «الحُرّ» الإنسانية وسيرته التاريخية.

هذه الإمكانية الفردية، وفي نفس الوقت المشتركة، التي اتخذها دوره الذي أدّاه، إنّما نشأت من «الشكل» و«المحتوى» اللذين كانا لهذا الدور.

---

(١) كل الأبطال الآخرين. كل واحد منهم بجسد مفهوم من المفاهيم أو قيمة من القيم أو إحساس من الإحساسات الإنسانية في أبهى صورة وأروعها، والتي هي انعكاسات للإبعاد المختلفة لوجود الإنسان: حنان الأمومة. حب الوطن. حب الإنسان. المحبة. الطهارة. التقوى. إن كل واحد من هذه هو بمثابة أصل أخلاقي.

لقد أنجز «الحُرّ» دوره على «صورة» هي نسيج لوحدها، وهي مما اختص بها الحُرّ وحده. والتي منحته أيّاه التركيبة الفردية الفائقة.

أما «المعنى» الذي تجسد وعبّر عنه في هذه الصورة، فيشمل النوع الإنساني كله، ويمثل معنى وجوده، بحيث كان عمله تعريف للنوع الإنساني[١]، وما يميزه عن جميع الموجودات في هذا العالم، وتحديد حقيقة الإنسان ورسالته في الطبيعة والتاريخ، وأمام الله سبحانه وأمام الناس ونحو نفسه، بفصاحة وبلاغة فائقة، لا تُقوّم بـ«الذهن» و«اللفظ»، بل بـ«المحبة» و«الدم». عبارة كل كلمة منها فلذة من ذات «وجوده».

يقول الإِمام الصادق عليه السلام: «كل يوم عاشوراء، وكل أرض كربلاء، وكل شهر محرم». ولو تمعّنا حقاً في عمق هذه الكلمة وآفاقها لأحسسنا مباشرة على أثرها بهذه الحقيقة:

«وكل إنسان هو حُرّ».

تقوم فلسفة تاريخنا على أساس من التضاد في أبعاد مختلفة، تضاد بين «المعروف» و«المنكر»، صراع بين قطبي «الإستكبار والإستضعاف»، «الله ـ الطاغوت»، «الشرك والتوحيد»، «الجور» و«القسط».

---

(١) الإنسان هو حيوان ذو إرادة.

والزمان في فلسفة هذا التاريخ، يبدأ بالحرب وينتهي بالحرب (من قابيل وحتى إمام العصر «عج»). حرب في بدء الزمان يستشهد فيها الإنسان المحق في اعتداء الإنسان المبطل عليه بدافع من الطمع. وفي آخر الزمان يؤخذ بثأر الإنسان المظلوم المخدوع المغصوب الحق، وتنتصر المساواة، وفي النتيجة تنتصر الأخوة والسلام والنور، وذلك بثورة عالمية مسلّحة تزيل حكومة «السفياني» وتقضي على مؤامرة «الدجّال» الخادع. وحينئذ ينتهي الأمر إلى الحال التي وصفها القرآن بقوله: ﴿ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾[1]، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

ومن هنا كان التاريخ تاريخ الثأر لهابيل. وكل عهد من عهود التاريخ إنّما هو مسرح من هذه المعركة الدائمة. وعليه ففي أي عصر وأي جيل، وفي أية نقطة على سطح الأرض يتواجد فيها الإنسان، فإن سبيل الله وسبيل الطاغوت لا ينفكان يتقابلان ويصطرعان، داعين الناس لنصرتهما، متمثلين بوجه حسيني ووجه يزيدي.

بمثل هذه النظرة إلى التاريخ والزمان والإنسان، لا مفر

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥.

لأي فرد، في أي عصر ومصر كان، من أن يجد نفسه وحيداً حائراً متردداً ما بين المعسكرين، مدعواً من إمام كلّ منهما. إنه كمؤشر مقياس مستقر عند الصفر ما بين التيارين، الموجب والسالب، مجذوباً من كلا القطبين المتضادين، أنه «متردد» و«متذبذب» و«حيران» و«لا شيء». يدعوه كل من النداءين المتخالفين دعوة متتابعة إلى أن يكون «شيئاً».

وقف وحيداً بين أمّتين، يسمع من هذا الجانب صوت أمير يصيح بعسكر الطاغوت:

«يا خيل الله اركبي!»

وفي الجانب الآخر إمام يطرح على الإنسان ـ إنسان كل عصر وكل جيل ـ هذا السؤال[1]، منادياً به نداء يستطرق التاريخ إلى غايته، ويلطم جدار العالم، وينسكب انعكاسه في الروح من بني آدم:

«هل من ناصر ينصرني؟»

وأنت ـ أيها الإنسان ـ لا حيلة لك إلاّ أن تختار.

هنا ثلاث طرق

إما أن تلتحق ب«خيل الله»! وتشتعل النار في مخيم الحرية

(١) ليس بأمر. ذاك «أمير» يأمر. وهذا «إمام» يطرح خيار.

والعدل، على أمل الفوز بـ«ملك الري». وتسعى أن تنال رضا «خليفة رسول الله»! ـ كما يدعون ـ بإشهار سيفك في وجه «خليفة الله» ـ الحقيقي ـ، وإجرائك الخيل على أجساد أهل الحق.

وتطمع في صلة «أمير المؤمنين» بأن تذبح الإيمان وتهدي رأسه إلى عاصمة الكفر، وتسوق عقائل الإيمان في قيود السبي، وتطوف بهنَّ في سوق الفاجعة الممقوت، ولا باعث لك على كل هذه الجرائم، إلاّ القربة إلى الجهاز الحاكم، والطمع في أن تتكىء على متكىء رئاسة قد دفن تحته شرفك، ناشباً مخالبك في غنيمتك، قابضاً عليها بيدين مدنستين مخضوبتين بنجيع الشهداء.

وأما أن تأبىٰ جبلتك احتمال مثل هذه البشاعات والدنايا، وتعجز عن النهوض بهذا الحمل الثقيل والتعلّق بمثل هذا العار تحمله أبداً على عاتقك وتطوف به العمر على مرأى من الله ومحضر من الناس، فتفر بنفسك من حريق جهنم لا يتخطفك لهيبها المتتابع ولا تأكلك نارها، وتسلم بدنك إلى روح الجنة وريحانها، وقلبك إلى عبير المعرفة المنعش، متأسياً ببطل هذه القصة المقدرة فتطأطىء هامتك وتخفض جناح الذل خشوعاً عند مقام الحقيقة القدسية، وتلقي بمجونك أرضاً علامة

التسليم للحق ـ الإسلام ـ، وتنطلق من حالك الظلام ومستنقع الهلاك، كما تنطلق ذرة نورانية نحو الشمس، وتلبي دعوة إمام الحق والنجاة إلى نصرة الله، بكرّةٍ تكرّها على الطاغوت، وبدلاً من أن تكون دودة تتلوى في قاذورات «السعادة»، وتصبح سفينة نجاة تطفو على موج من نجيع الشهادة لترسو على شاطىء «الكمال»، وتدفع بالقيم الإنسانية، وهي على وشك التردي في حضيض النسيان والسقوط، إلى دورة الزمان ليرثها غداً أهل الحق من بعدك، ويكون هذا «الإيثار المطلق» عدّة الناس في تقدمهم نحو الكمال والنور. وتكون أنت متسامي الوجود، مرفوع الرأس، بما وفيت بعهدك، وأدّيت رسالتك، ترتقي إلى الله خالداً في جواره. وتنال جزاء إيثارك وصبرك وتقواك وشهادتك، من الله الرؤوف، وتُطعَم من طعام الشهداء، وتُسقى من كأسهم، الطعام والشراب اللذين تصبو إليهما أرواح عجزت الطبيعة عن إشباعها وريّها[١].

وأما، إن لم تكن لهؤلاء ولا إلى هؤلاء: تقف معتزلاً في مكان، وحرب الصدق والكذب في غاية احتدامها، وسيوف الإستعباد والنجاة تتقارع وتتشابك. ومن لهيب المخيمات المشتعلة، وعويل الأطفال المشردين، وصيحات الجلادين

(١) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

والمغيرين، والمعجزات التي يصنعها المجاهدون، تهبُّ عاصفة كاسحة، ومن نجيع الشهداء تجري أنهار على وجه الأرض، وأنت أمام كل هذا متعام متصادم متقاعد غير مكترث، لا ترى حادثة ولا تسمع صيحة، تقتعد مجلس الذليل، متغافلاً عن كل ما يجري حولك. تلقي بنفسك في درك البهيمية، وتحسب أنك ناعم بالحرية، وتقتصر نظرك أن يمتد إلى الأقاصي. متقوقعاً على نفسك، تعُدّ ما كنزت من مال، أو تجلس إلى المرآة تتجمل وتتزين.

على أية حال، أما أن تنكب على الشراب، أو تنهمك بإقامة الصلاة، لكيلا تكون شاهد عاشورائك، وشهيد كربلائك. تغيب عن الساحة إما بسحر من الأفيون أو العبادة، وتخادع النفس بالعلم والدين والإنتشاء، بكونك «أهل الصلاح»، أو بالإنغماس في «الأعمال الخيرية».

على أية حال هي ثلاث طرق:

طريق «الخباثة»، وطريق «الطهر»، وطريق «الفراغ»!

ثلاث طرق شارعة أمام قدمي كل إنسان، وأنت تقف على مفترقها كلمة غير مفهومة و«وجوداً»[١] بلا «ماهية»[٢]. أنت لا

---

(١) Existence

(٢) Essence

شيء قد وقف على هذا المفترق. وما دمت واقفاً فأنت لا شيء. لأن الوقوف هو لا شيء.

تختار طريقاً وتسير، وباختيارك تكون قد إخترت «نفسك»، وأصبت معنىً، و«تعيّنت ماهية وجودك»، وتشكلت «كيفية كينونتك».

وهكذا الإنسان، يتلقى «الوجود» بـ«الولادة» ويتلقى «الماهية» بـ«الإختيار». وكما يقول «هايدجر»: الإنسان «وجود» يخلق ماهيته بنفسه. والماهية تتحقق في ما يسمى «الوضع الإنساني»[١].

فالإنسان إذن موجود لا معنى له. وليست له «كيفية معينة سلفاً». وإنما يسبغ عليه معناه وجوهره وحقيقته الخاصة به، الوضع الذي يستقر فيه. وحينئذ تظهر «الأنا» وتتم خلقة «الإنسان».

هذا الوضع، المكان الذي يختاره في العالم وفي المجتمع وعند مفترق الطرق، إنسان ما، ويسمى في الفلسفة الوجودية «القلق»[٢]، هو وليد وعي الإنسان لوجوده. لقد أحسّ إحساساً عميقاً بعظمة مثل هذا الإختيار المصيري الخطر وحساسيته

---

(١) SITUATION HUMAINE

(٢) ANGOISSE

وثقله. وهو يجد نفسه على عتبة ولادة، تعيّن حقيقة إنسان وكيفية وجوده. وبما أن الله والطبيعة قد أطلقا يداه وفوّضا أمره إلى نفسه[١]، في مثل هذا الإختيار، فإنه يرى نفسه وحيداً غير معتني به، وأن عليه أن يتحمل عبء مسؤولية خلق نفسه ويتقبل عواقبه الخطيرة وحده.

وقد فطن مولانا جلال الدين الرومي، المفكر الوجودي الكبير، إلى «قلق الوجوديين» هذا، الناشىء عن وعي الإنسان واحساسه بمسؤولية الإختيار، قبل «سارتر» بسبعة قرون. يقول: «الإختيار» مشقة الإنسان العظيمة المرعبة «ومن هنا يلجأون إلى التخدير أو السكر، ويبحثون عن الغفلة والنسيان، ساعين إلى إعماء الإحساس وشلّ الوعي والشعور في أنفسهم، لكي يرتاحوا لحظات مما يبهظهم من عبء مسؤولية الإختيار وآلامه»[٢]. وكما يقول «الفرد دوبيني» في قصيدة «موسى»[٣]: . . . يطمئنون في نوم الطبيعة الهادىء، ويلقون عن عواتقهم عبء الرسالة الفادح، ويحسون في أنفسهم

(١) Delaisseinent

(٢) المثنوي.

(٣) يبدو موسى في هذه القصيدة وقد انحنت ركبتاه الفولاذيتان تحت عبء المسؤولية، فصعد الطور يطلب من الله، وهو يئن ويتلهف، أن يخلصه من هذا القلق وهذا الثقل الذي ينوء به، وينيله الطمأنينة في كنف طبيعة لا اختيار فيها ولا تكليف.

بالطمأنينة والبرأ من الألم إحساس جميع موجودات العالم التي يتحكم فيها جبر الطبيعة وخضوعها للمشيئة الإلهية، تلك الرسالة التي ألقى بها إلى وجود الإنسان، ثم اطلقت له الحرية، وفوّض إليه تقرير مصيره، وأريد منه أن يختار الطريق وقد أوكل إليه خلق ماهيته الذي هو شأن من الشؤون الإِلهية.

وقد أحنى ثقل المسؤولية ظهر موسى وأشاب محمداً[١].

والآن نستطيع تقويم دور الحُرّ الرائع، وأن نتلمس المدى الذي امتدّ إليه «نطاق القضية» كما يقول البيهقي. وحينئذ نعرف ما ساوره من «قلق» و«ألم» في الساعات الثقيلة من صباح ذلك اليوم العظيم. اللحظات الموجعة المقلقة لولادة أخرى، إذ كان يجب أن يولد من «الحُرّ اليزيدي» «حُرّ حسيني»، وفي لحظات مهولة مارقة، يقفوها الإنفجار، ليس فيها مجال للحظة واحدة من الغفلة، إذ تكون فرصة الإختيار قد مرّت وفاتت: وحينئذ، فإن راكب الريح هذا الذي يستطيع، في هذا السباق الفدائي، أن يكون المجليَ بين أبطال الشهادة، وأن يثب من سجن ابليس ويلتحق بالله كلمح البصر. وإن هو تباطأ لحظة واحدة فعليه أن يظل في صورة مأمور مأجور مسلوب الإرادة لجهاز الحكم الدنيء الممقوت، ويعتزل هذا السباق إلى عمر من الحقارة،

---

(١) في الحديث «شيبتني سورة هود».

وتصبح قيمته أقل من أن يذكر التاريخ اسمه حتى بالسوء، إذ هو قد آل إلى مآل يستكثر عليه فيه حتى أن يُدعى بالمجرم. وذلك لأنه لم يكن أكثر من أداة من «أدوات الجريمة، إنه، وكما قال أحد الكتاب: «هو أحد أدوات الجاني، من عصا وحذاء ونظارة وغدارة وسوط».

والحُرّ أحرص من أن يدع مثل هذه الفرصة العزيزة تفلت من يده هدراً، وفرصة مثل هذه قلّما تتاح لأحد، وقلما يأتي التاريخ بمثلها عظمة، وها هو التاريخ قد خصّه بأجمل وأعظم اختيار.

ومع كل هذا، لا يمكن سبر أعماق الألم، وشدة القلق الذي ساور الحُرّ في هذه اللحظات، لحظات ما قبل الإنفجار المقلقة الثقيلة. إلاّ أنه كان ظاهراً، أن بطل الجيش الشجاع كان شديد الحيرة.

لحظات من «ليلة القدر»، ليلة القدر التي تصنع المصائر وتخلق القيم[١]. الليلة التي هي خير من ألف شهر. لحظات قصيرة مارقة، هي أكثر جوداً من كثير من السنين، وأبعد عراقة من طويل من الأعمار.

«الملائكة» ملائكة القيم الإِلهية، و«الروح» الروح التي تُنفخُ في أجساد جيل باردة خاوية، تهبط من كل صوب، كغيث الربيع

---

(١) القَدْر: المصير. القَدَر: القيمة.

المنهمر، وتُطْلِقُ انبعاثاً من الانفجار، وتقيم قيامة من الثورة. وإذا بظلمة الجهل والظلم تنقشع عن الشمس[١]. وفجر الحرية واليقين ينتشل الحُرّ من مخالب يزيد ويلقي به في رحاب الله.

أجل. إن ذلك كله يحدث في قضية الحُرّ بمثل هذه السرعة، وعلى هذا النحو الخاطف[٢].

كان الحر، منذ البدء، يأمل في أن يؤول الأمر إلى تسوية. ولكن الحوادث تسارعت في طريقها إلى الحرب، واستعداد الإنسان لتحمل العار استعداد محدود، إلاّ الذين رزقوا في الوقاحة «نبوغاً» وفي الدناءة «بطولة»، تجعلهم مستعدين لتحمل العار إلى ما لا نهاية.

أما الحُرّ، فقد كان قليل الإستعداد في هذا السبيل، وقد دلّت سيرته على أنه فارس الطريق الأخرى. إلاّ أن مجرى الحياة ومقتضيات الظرف، قد قادته إلى هذه الطريق من حيث لا يشعر.

---

(١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

هكذا تنفخ الروح في إنسان من الناس، أو عهد من العهود، أو جيل من الأجيال، فتبعث ثورة تحدث في حالك من الليل قبيل الصبح، وتخلق مصيراً آخر وقيمة إنسانية أخرى (الفجر: أصل مادة «الإنفجار»).

(٢) إلى أي حد نستطيع أن نفهم احساسات الحُرّ؟ إنه بشر مثلنا، طبعاً حتى صبح عاشوراء.

ولم يكن قد خطر على باله قط أن يكون اتصاله بخدمة الجهاز اليزيدي مشاركةً ليزيد في أعمال الجريمة. وكل ما في الأمر أنه كان يرى ذلك «شغلاً» يتعاطاه، ووسيلة يتوصل بها إلى «المعاش» بحيث لا يتنافى مع «الدين» ولا يرتبط بـ«السياسة».

والآن، قد آل الأمر إلى الحرب، فإن الحُرّ يدرك حق الإدراك، ويرى بعينيه ما هو عمله ومن أجل أي شيء يعمل.

إنها اللطمة الأولى! لطمة من تلك اللطمات التي تعيد، لأول مرة، الإنسان إلى نفسه وتجعله يحقق ويتأمل في نفسه وأمر نفسه. وتضعه في موضع لا بدَّ له فيه من تقويم ما بين «المسؤولية» و«المشغولية»، من مكانة ومقام وما يفصل بينهما من اعتبار.

كانت أمنية الحُرّ أن يحتفظ بشغله ويحفظ شرفه. ولكن التضاد بين الحق والباطل، وقد آل الأمر إلى الحرب، قد جعل المجال أضيق من أن يتسع للتوجيه والفرار وغضّ البصر والتغيب. وأضحى الجمع بين الغايتين مستحيلاً، فقام بآخر محاولة ـ وإن كان آيساً منها ـ لعلّه يجد مخرجاً ويسمع البشرى بالسلام والتسوية. فدنا من أمير العسكر عمر بن سعد، الذي هو الآخر لم يرغب في أن تؤول القضية إلى الحرب، وقد قَبِلَ هذه المهمة أملاً في إمارة الري وجرجان.

وما أحسن أن يصل إليها بثمن أقل من إبادة بيت الرسول، وتلويث سمعة أسرته، وهو ابن سعد بن أبي وقاص، صاحب الرسول المشهور وفاتح إيران، والمهاجر البدري أيضاً!

هنا دروس عميقة شيّقة في علم النفس و«علم الإنسان» جديرة بالتأمل والتدبر.

عمر بن سعد والحُرّ

كان عمر بن سعد والحُرّ كلاهما في مركز اجتماعي واحد، وتبعية سياسية واحدة. بل كان لكل منهما أيضاً اتجاه روحي وانطباع فكري واحد عن القضية، وقد أقبلا معاً من قصر يزيد إلى ما قبل مقتل الحسين بخطوة واحدة.

وكلاهما كان كارهاً لأن يصبح جلاداً، وقبل أن تنشب الحرب أظفارها، نشبت في داخلهما حرب بين سبيل «الله» وسبيل «الطاغوت». «التقوى» و«الفجور». «المثال» و«المادة». «الدنيا» و«الآخرة»...[1].

(١) وذلك في هذا المجال الإنساني الذي تصبح فيه هذه المفاهيم والروابط والمتضادات والأحكام ذات معنى، فهو معنى صحيح. غير ذلك الذي يتحدث به الفلاسفة والمتكلمون وعلماء الإلهيات، بلسان فلسفي على أنه من الوقائع العينية، ومن ثم تعود أعلىٰ القيم الإنسانية الراقية البناءة مجموعة من الخيالات والخرافات.

ولكن هذين المتسايرين لا يلبثا أن يتضادا في الإختيار وفي آخر لحظة.

ها هو الحُرّ ينهمك في حوار مع عمر، لا بأمل السلام فحسب، بل بشوق إلى السلام، فيسأله:

ألم تتمكن من أن تنهى الأمر بالتسوية؟

فيجيبه عمر بلهجة اختص بها هذا الفريق من الناس، ممن لا لون لشخصياتهم، الذين يميلون إلى حسن الخلق وطيبة القلب، ولكن ما في وجودهم من حقارة تملؤهم خوفاً وطمعاً يطغى على هذا الميل فلا يظهر. وهم، في نفس الوقت، على استعداد كامل للخضوع والتسليم:

ـ لو كان الأمر إليَّ لقبلت، ولكن أميرك عبيد الله بن زياد أبىٰ ذلك.

ـ أمقاتل أنت هذا الرجل؟

ـ أي والله، قتالاً أيسره أن تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي[1]. وبهذا أقدم عمر على اختياره النهائي.

---

(١) مثل هذا الفريق الضعيف من البشر، تتوفر فيهم طيبة. إلاّ أنه عندما يكلفون فأنهم يظهرون من القساوة أكثر بكثير من الذين هم جلادين بالفطرة، إنه التحليل النفسي لهذا الفريق.

أما الحُرّ فقد وجد نفسه، فجأة، تحت سماء قد تصدعت على رأسه. لقد كان التردد يعشش في روحه دائماً. حتى أنه لما التقى، أول مرة، بفريق المجاهدين، وهو في منصب الإمارة من الفريق الذي يطاردهم، ونفّذ المهمة التي عهد بها إليه فقطع الطريق على الإِمام، كان مشخّصاً أنه ليس تلك الأداة الجامدة للجريمة، ولا هو ذلك العبد الطيّع للقوة والمأجور المحلَّف لها، الذي سلبت منه عامة الروح والشعور والإحساس والإيمان والأخلاق، وقوة التمييز بين البشاعة والجمال، والصدق والكذب، والحق والباطل، والحسن والسوء، بل سلب منه حتى السمع والبصر، بحيث أصبح لا شيئاً سوى آلة لتنفيذ الأوامر في قبضة أمير الكوفة.

كان عمر شخصية اجتماعية، ينتمي إلى أسرة معتبرة مشهورة. وكان واقفاً على كل ما حدث في هذه السنوات الخمسين[١] التي انقضت من تاريخ الخلافة، المملوءة بالمؤامرات والتحريف والغضب وإضاعة الحق والمتاجرة بالدين ومخادعة الناس. وبهذا يكون قد دخل في خدمة الجهاز الحاكم بما هو «رجل سياسي» يعي ما يقدم عليه، ومع أنه كان ابن سعد بن أبي وقاص الصحابي المشهور ذي الشخصية

---

(١) خمسون عاماً، منذ رحيل الرسول الأعظم ﷺ سنة ١١ هجرية وحتى عاشوراء الذي كان سنة ٥١ هجرية.

البارزة والفاتح الإسلامي العظيم، فقد أقدم على التعاون مع الحكم الأموي، وهو يعلم ما الذي يفعل وأي سلطة كان يخدم، ويعلم لماذا يفعل ذلك وبأي ثمن؟.

لقد جاء إلى هنا لمناصرة بني أمية في سحق الخطر الماثل لهم. وقد قبل هذه المهمة الشاذة لقاء الحصول على منصب سياسي يدرّ عليه العسل واللبن.

والحُرّ، كان امرءً عادياً غير واعي ولا عارف مجريات ظرفه السياسية والأساسية. وقد ساقته المجريات الطبيعية في حياته الشخصية إلى الدخول في هذه الخدمة. وقد وصل إلى هذا المقام بمؤهلاته الفردية لا غير. وهو مقام كان له بمثابة عمل وتدبير معاش، ولم يكن انحيازاً سياسياً واعياً إلى جبهة الدفاع عن الحكم الأموي، في مقابل القوى الثورية والجبهة الإنقلابية الناهضة ضد هذا الحكم.

من هنا أظهر كل منهما، في هذا الحوار، ميله إلى السلام واجتناب الإقدام على هذه المجزرة والتخلّص من تبعاتها. كانت لحظة لا يمكن فيها التلاعب بالدين والمتاجرة به لأجل الدنيا. لا مندوحة لكل منهما من اختيار واحد من اثنين، والوقوف بوجه الآخر بصورة حاسمة. شخصيتان مرتبطتان بنظام واحد تبتعد كل منهما عن الأخرى. فعمر يُصممّ على قتالٍ «أيسره أن تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي». أما الحُرّ

فيرى أن القيام بمثل هذه المهمة أمرٌ مخيف.

فأطرق ساكتاً، متفكراً، وقد أعاده ما اعتمل في نفسه غريباً عما يجري حوله[1]. . كانت تعذبه رؤية الوجوه التي تمرّ به، وجوه كأنها الأشباح تحدّق فيه فلا يرى ما يشده إلى بريق أي من نظراتها. أصبح لا يطيق هذا الجمع الغفير، وقد انقطعت الآن صلته به، رغم أنه لا يزال بعد من قادته المشاهير.

إنه يحسّ تغيراً عميقاً في فطرته. إنه آخذ في خلق ماهيته واتخاذ شخصيته. إنه يكتشف «وجوداً» لنفسه. ومن هنا كان يحس أنه يبتعد بسرعة عن أقربائه، ويصبح غريباً عن معارفه، ويرى نفسه وحيداً في هذا المجموع.

جيش يزيد الذي ينوف على مائة ألف مقاتل يراه جيشاً لا وجه له. الجمع الغفير من الظلال والأشباح، والدمى الكرتونية والعرائس، وجودات بلا ماهية وموجودات بلا معنى، فارغة جوفاء، لا يحسب إلاّ عددها فقط. كل واحد منهم نسخة مكررة عن الآخر. كلهم من طراز واحد، لا محتوى لهم، وإنّما يتشخص أحدهم بما هو «فرد» من آحاد، و«رأس» من ماشية، و«رقم» من معدودات.

إنهم موجودون. إنهم يتماوجون، قد شغلوا من البسيطة

---

(١) مثل هذا يظهر ـ من وجه نظر نفسية ـ أن عندما تتغير روحية الإنسان، كيف أن علاقاته وتوجهاته تتغير أيضاً.

مكاناً واسعاً، ويسمع منهم قال وقيل كثير. لهم كر وفر، وضجيج وعجيج، ولكن ليس لهم أي «وجود» إنهم «كاريكاتور» إنسان. إنهم انعكاس لوجود آخر هو وجود سيدهم، إنهم جميعاً بعض أحذيته وسيوفه وتروسه ودبابيسه وسياطه وحشمه وخدمه. إنهم جمهور البوابين له. إنهم لا شيء، حتى لا يمكن أن يقال فيهم أنهم سيئون. يزيد وحده هو السيء. إنهم ليسوا أهلاً حتى لأن يلعنوا. يقتلون وليسوا بقتلة. يقطعون الماء عن العطاشى ويشعلون النار في المخيم. يبيدون جند الحرية والحق، ويجرون الخيل على أجساد المروءة والإيمان، ويقضون على أهل بيت الرسالة، ويسيّرون عقائل الإيمان مكبلات بالسلاسل، ويسوقون الآيات القدسية للحرية والعزة الإنسانية إلى بلاط ابليس ليسلمونه إلى حراس العبودية والذل... ومع ذلك كله فهم أحقر من أن يلعنوا، وهم لا يبعثون في قلوب ضحاياهم حقداً[١].

---

(١) ولذلك منع علي العظيم أصحابه في صفين من سب عسكر الشام قائلاً: «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين». فأنتم أرفع من أن تكونوا سبابين وهم احقر من أن يستحقوا السب. ويقول أيضاً مخاطباً المتخاذلين من أتباعه الذين يعدون أنفسهم، زوراً وبهتاناً خلفاء المجاهدين المحقين والشيعة الأوائل في التشيع، وهم ليسوا أكثر من ألاعيب حقيرة صاغرة بيد معاوية، يدّعون فخر التشيع لعلي وهم جبناء كسالى يتكالبون على الدنيا ويتخذون من «محبة المولى» ملجأ يتسترون وراءه زاعمين أن يد الإنتقام الإلهي لا تطال ذيولهم السوداء الملطخة بالذنوب. وينسجون

إن الإنسان موجود له إدراك، ووعي ذاتي وحرية، وغاية، وقوة إرادة واختيار. أما هؤلاء فكل عدّتهم من ذلك أن لهم «سيّداً».

مساوئهم وحسناتهم، وبشاعتهم وجمالهم هي، كحربهم وسلمهم، مرتبطة به، على ما قال المثل «أنا الذي كان رستم بطلاً»[٢] إنهم «الأسود»[٣] المنقوشة على «العَلَم»، يثبون ما هبت الريح على العَلَم. إنَّهم عدة إنسان وعدده. إنَّهم حواش لمتن، وظلال لذات، وتصاوير لوجه. إنَّهم شفرة عدو وسهمه وترسه وسيفه، إنّهم موجودات متعطلة باطلة غير ملتزمة، فإذا تلقوا الأمر اتخذوا ماهيتهم.

والإنسان يحسّ في نفسه حاجة. وعلى ذلك يختار لنفسه غاية ويتحرى طريقاً للوصول إليها. ويضع برنامجاً للعمل، ثم

من «الولاية» نقاباً يسترون وراءه وجوههم المشوهة وأرواحهم الحقيرة: «وما خلقتم في حثالة لا تلتقي بذمهم الشفتان، استصغاراً لقدرهم، وذهاباً عن ذكرهم. فإنا لله وإنا إليه راجعون. ظهر الفساد فلا منكر مغيّر ولا زاجر مزدجر، أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه وتكونوا أعزّ أوليائه عنده؟ هيهات! لا يخدع الله عن جنته ولا تنال مرضاته إلاّ بطاعته، لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به». (الخطبة ١٢٩ من نهج البلاغة).

(٢) مثل فارسي يضربه الإيرانيون لمن يتباهى بمفاخر غيره. ونصه بالفارسية «من آنم كه رستم بود پهلوان». (المترجم).

(٣) يقصد بها الآسد الذي إتخذه شاه إيران المخلوع علماً لعهده، وهذه صفعة مباشرة من شريعتي للنظام وقتها. «الناشر»

يوفر وسائله وشروطه. . أما أولئك، أصحاب الوجوه المزيفة، فغائبون عن كل تلك المراحل. إنَّهم غائبون عن سيّدهم لا يشاركونه في حاجة من حاجاته ولا غاية من غاياته. هو الآن يريد بعض هؤلاء، فأخذ يجمع العدد المطلوب لذلك. يعملون ولا يعلمون ما الذي يعملون، إنّما هو الذي يعلم. ويسارعون ولا يعلمون إلى أين يسارعون، وإنّما هو الذي يعلم. هو يحقد، وهم يحاربون. هو يغضب وهم يزمجرون. هو الفاتح السعيد وهم يرقصون.

ثم ينال كل منهم أجره، بما يتناسب طبعاً وكل مهمة من هذه المهمات. اما بصورة «صلة خليفية» دائمة راتبة. وأما بصورة مقاطعة «كما هو عمر». وقد يكون أداء المهمة بنيّة القربة إلى السلطان فقط، أو طمعاً في صلة من خلعة أو جائزة مالية، أو بأمل النهب والسلب في الإغارة على بيت مفجوع، أو إنشاء مخلب في عنق أرملة قتيل من القتلى، أو اقتلاع إذن طفل تائه في قلب هذه الفتنة الرهيبة المجنونة الوحشية، أو بتر إصبع شهيد يرقد مزملاً بدمائه، شهوةً بإختطاف قلادة أو قرط أو خاتم. . . وهكذا إلى الأمل بملك الري، المقام والحيثية الذي يدرّ العسل واللبن.

طبعاً هم، من حيث الخاصية والمكانة، متفاوتون، شأنهم في ذلك شأن أموال «السيد» الأخرى وأدواته وحشمه ومواشيه،

إلاّ أنهم في اللا إنسانية سواء موصوفات بلا صفة، وهياكل جمّة غفيرة بلا شخصية، وأُسود منقوشة على عَلَم الشيطان[١].

ها هي «الروح» التي تخلق «القدر»، تحلّ في هيكل من هذه الهياكل الموهومة، تحلّ في صورة من صور هذه الأُسود الكاذبة التي رسمت على عَلَم الكفر تنفخ فيه فيهتز وينتفض.

إن «مُقلّب القلوب والأحوال» يصنع ثورة عجيبة، مسيح الوعي والمحبة يعيد للأعمى بصره ويحيي الميت. ومن جلاد يزيد، الذي جاء حتى العتبة من مصرع الضحية، يصوغ شهيداً للحسين.

« إسراء ومعراج » الحُرّ

عالم من الإضطراب عجيب، اضطراب خلق «الكون والفساد» قام في داخله. كان ميدان كربلاء لا يزال هادئاً، إلاّ أن حرب يزيد والحسين كانت قد استعرت نارها في صدره، وأخذت أعماق روحه تتلظّى بتلك النيران. ولكي يرقى إلى أوّج العظمة الإنسانية كان عليه أن يبدأ من أعماق الأرض المظلمة، لا من سطحها، كما يبدأ غيره. هناك حيث تعشش الأبالسة والأرواح الشريرة الشيطانية والجهنميون الذين حقّت عليهم اللعنة.

---

(١) هذه صفعة آخرى لنظام الشاه وقتها حيث يضعه شريعتي بكل وضوح وشجاعة بـ «الشيطان». «الناشر»

في الأسفار، لا يكفينا أن نتبين «إلى أين» وصلت القافلة، بل الحق والإنصاف يقتضيان أن نسأل كل مسافر «من أين» أقبل أيضاً[١].

وبهذه الكيفية فقط نستطيع أن نتحدث عن «معراج» الحُرّ، إلى سدرة منتهى الإنسانية. وعن «اسراء»[٢] الحُرّ إلى مسجد

(١) الحر هو من ضمن هؤلاء الستين أو السبعين، إلاّ أن أولئك من أين قدموا؟ قدموا من المدينة، وقد اقتربوا من كربلاء، ولكن ما بين الكوفة وكربلاء طريق طويلة.

(٢) المعراج هو عروج الرسول من أديم الأرض إلى قاب قوسين أو أدنى من ملكوت الله، حيث «سدرة المنتهى»، آخر نقطة يرقى إليها وجود الإنسان. الإنسان النقي الذي تخلّص من العبودية إلى الحرية، وتقدم من «التعبد لله» إلى «الاتصال بالله».

والإسراء، في اللغة، هو السفر ليلاً. وفي الإصطلاح سفر الرسول ليلاً من «المسجد الحرام» إلى «المسجد الأقصى». والمعراج يحكي تكامل الوجود الإنساني، وارتقاء جوهر الإنسان من المادة إلى الله. وهو رمز «اتحاد الوجود» والاتصال ما بين الإنسان والله، وارتباط العالميّن اللذين كانا يعدان في نظر الفلسفات والأديان القديمة متضادين.

والإسراء رمز الترابط بين الأديان الثلاثة الكبرى: اليهودية والنصرانية والإسلام، وكون كل منها استمراراً «تاريخياً» للآخر، بما هي تيار واحد متواصل للتوحيد.

والمعراج يتحدث عن النظرة العامة إلى الكون والإنسان، والإسراء يتحدث عن «فلسفة التاريخ» والترابط والوحدة التاريخية بين جميع نهضات التحرر وطلب العدالة، ومحاربة الشرك ونصرة التوحيد في سيرة الإنسان، تلك النهضات التي كان محمد مظهراً لها، بما هو رسول «دين» وإمام «أمّة» (الآيديولوجية والقيادة، أو المدرسة الفكرية والدور التاريخي).

أقصى «الحرية»، في هذا الليل البهيم من الجهل، وهذا الظلام الحالك من الظلم. وأن نجد فيه «مهاجراً عظيماً»، مهاجر قام بـ«الهجرة الكبرى» التي هي أكثر سمّواً من أسمىٰ مقام إنساني: الشهادة.

هجرة مسافتها ما بين بيت أصنام الشرك ومدينة الشهادة. وقد طواها الحُرّ في مدة «نصف نهار» ب«تصميم» و«بضع خطوات». مسافة طولها طول الأبد. وطريقها من الشيطان إلى الله.

وما أسرع ما طوىٰ الحُرّ هذه الطريق بـ«جولة» واحدة خاطفة؟

لم يتدرج في مراحل يقطعها واحدة بعد أخرى. ولا قرأ مقدمات، ولا فلسفة أولى، ولا حكمة إلٰهية. ولا زار في التصوف مدائن الحب السبع، ولا اطلع على علم الأخلاق، ولا استغرق في تزكية النفس والتوسل وطلب الشفاعة والرياضة والزيارة. لم يسمع كلمة من كل ذلك «الكلام»، ولا تعلّم أصلاً من كل تلك «الأصول»، ليكتشف الحقيقة، ويتبين طريق الهداية، ويفهم التوحيد الحق، ويكشف عن السنّة والولاية، ويحسّ بالمسؤولية ويعيّن التكليف، ويحظى بالتوفيق في العمل.

لقد كانت كل تلك الفِرَق في المعركة، إلاّ أنه لم يقل: أية

فرقة؟ وكان فيها كل هذا الفقه المختلف. ولم يقل: أي مذهب؟

فماذا فعل الحُرّ إذن؟

غيَّر جهته، لا أكثر ولا أقل.

... هذا كل ما كان منه. الجهة هي التي تعطي كل شيء معناه، والجهة هي التي تجعل كل شيء بلا معنى، العلم والفن والأدب والحياة والحضارة والدين والتعبد لله والجهاد والحج والعبادة، حتى التوحيد والقرآن ومحمد وعلي...[1].

وقد اختار الحُرّ الأسلوب الثوري ليطوي تلك المسافة التي طولها طول الأبد، ومدى طريقها من الشيطان إلى الله. كان ثورياً فيما اختار، لقد بادر إلى تغيير جهته.

إن كل إنسان «سهم اشارة» إلى جهة، والحُرّ صباح عاشوراء (العاشر من محرم) كان سهم إشارة إلى يزيد. وبعد

---

(١) جميع العقائد والأعمال يتوقف قبولها على صحة الطريقة التي يتبعها المكلّف وصحة إمامة الإمام الذي يقتدي به. ما أعمق هذا الأصل العقلي العظيم الذي لا ينفك الشيعة يكررونه، وما أدّقه! إنه تجربة التاريخ لجميع الثورات والدرس العظيم من جميع الهزائم والإنحرافات، وعمدة التقويم لكل عقيدة بالقول والعمل، وبوصلة دقيقة تدل على كل تحريف وتخدير ومخادعة، ولكن اسفاً أن يكون أرقى المفاهيم هذا مضيّقاً!

الظهر من عاشوراء أضحى الحُرّ سهم إشارة إلى الحسين، هذا كل ما هنالك، وكل ما عدا هذا لا طائل له.

وها هو الحُرّ يبدأ هجرته العظيمة. ها هو يهاجر ليصوغ من «الجلاد» اليزيدي، «شهيداً» للحرية.

كان إلى جنبه قرة بن قيس، فقال لقرة:

ـ هل سقيت فرسك اليوم؟

ـ لا.

ـ فهل تريد أن تسقيه؟

ولم ينتظر الجواب على سؤاله، بل مضى في سبيله لا يلوي على شيء، وأخذ يبتعد قليلاً قليلاً عن الجيش، حتى اجتاز المشرعة، ماضياً إلى «جهة» الحسين.

فظنوا أنه ماضٍ إلى الحرب.

كان مهاجر بن أوس قريباً منه، فقال له المهاجر:

ما الذي يدور في رأسك يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟

إلاّ أن الحُرّ، وقد كان يجتاز أعظم اللحظات إثارة، لم يجبه. بل لعلّه لم يسمع من كلامه غير صوت مبهم. كان مستغرقاً بما يتفجر في داخل نفسه من انفعالات، مشدوهاً بما ينبلج به فجر «نفسه» من جلال وأعاجيب.

فقال مهاجر، وقد عجب من حيرة الحُرّ:

ـ إن أمركَ لمريب. والله ما رأيت منك في موقف قط مثل هذا. ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك. فما الذي أرى منك؟

فقال له الحُرّ:

ـ أني أُخيّر نفسي بين الجنة والنار. والله لا أختار على الجنة شيئاً، ولو قطّعت وأحرقت!

الآن تكاملت خلقة الحُرّ. وانتهى به قلب الإختيار إلى لذة الطمأنينة، ووضوح «الإخلاص واليقين». وها هو يمضي نحو الشهادة بخطوات ثابتة لا تعرف التردد.

الحُرّ هو «آرش» الحقيقي في ملحمتنا «سيرة الإنسان». وها هو ماضٍ إلى أن يجعل من روحه سهماً يرمي به أعداء البشرية إلى أقصى حد، ليصبح حدّ «حرية الإنسان» أوسع نطاقاً وأبعد مدى[١].

---

(١) في هذا المقطع إشارة إلى اسطورة إيرانية قديمة وردت في «الشاهنامة» يقتضي المقام تلخيصها لايضاح الموضوع:
في القديم غزت مملكة «طوران» مملكة «إيران» واحتلت قسماً من أرضها. ثم انتهى أمر الحرب إلى المصالحة. واتفق قادة الجيشين على أن يطلق أحد المحاربين الإيرانيين سهماً عن قوس، وحيث وقع السهم فهناك تنتهي أرض إيران. وأراد الإيرانيون أن يكون الرامي ماهراً ليكون مدى انطلاق السهم أبعد ما يمكن أن يكون ويحصلوا على أوسع ما يمكن الحصول عليه من الأرض. فتقدم «آرش»، وهو محارب بطل وأشهر من رمى بسهم في إيران، وكان شيخاً كبيراً، وعرض عليهم أن يكون هو

اتجهت نحو الحُرّ ألوف النظرات من كل جانب، تحدّق النظر إليه في حيرة وسكوت، تتبين ماذا سيفعل الرجل.

يقترب الفارس من معسكر الحسين عليه السلام.

سفينة أقلعت من الأقاصي وأقبلت تدنو من الساحل آمنة مطمئنة.

وسرعان ما نكسَّ مجنه فتأبطه.

طأطأ الضابط المغرور، المحارب الشديد المراس رأسه، فالعظمة هنا في الخشوع. نطق بكلمات مسلماً ومعتذراً: أنا الذي جعجعت بك يا حسين.

ودعاه الإِمام إلى النزول فقال:

ـ أنا لك فارساً خير مني راجلاً. أقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى النزول ما يصير آخر أمري.

الرامي، وأخبرهم أنه سيقضي نحبه فور اطلاق السهم، لأنه سيدفع معه بكل قواه البدنية.
ومن على جبل «البرز» أوتر قوسه وأطلق السهم ووقع على الأرض ميتاً.
وظل السهم مندفعاً في الفضاء من الصباح إلى الظهر، إذ وقع عند ضفة «جيحون».
استعمل الدكتور في الأصل الفارسي كلمة «مردمنامه»، أي «سيرة الإنسان»، أو الناس، في مقابل «شاهنامه»، أي «سير الملوك»، فـ«آرش» بطل ملحمة «شاهنامه» الأسطوري، و«الحُرّ» بطل ملحمة «مردمنامه» الحقيقي. (المترجم).

فترك الحسين له الخيار قائلاً:

ـ فاصنع، يرحمك الله، ما بدا لك.

كان يستفزه الشوق إلى الشهادة، وقد ألقى عن وجهه ذلك القناع السابق، القبيح الأسود، الذي كان يَسِمُه بوصمة الحارس لنظام يزيد والشرطي لإبن زياد. هو الآن لا يقر له قرار. يريد أن يجلو نفسه أمام العدو والصديق، أمام الوجود كافة، أمام الله، أمام. . نفسه، وهو في صورته الجديدة، أجمل وأجل صورة إلٰهية في الإنسان!

كان يستثيره أن يعود فيواجه جيشه ويصيح فيه، ويخبر عمر بن سعد:

«لن أكون، بعد اليوم، عبداً للقوة ولا أجيراً للظلم، بل أنا إنسان حُرّ!».

«إني أنا الحُرّ!»

«وها أنا ماض إلى الشهادة!»

وكان الأمر أعجل من أن يتسع للتوقف والكلام، فعاد إليهم فارساً. ووقف قبل «العدو»، وطلب مبارزاً، وهو يرشق العسكر بسيل من الأقوال المحرقة، من اللوم والتعنيف.

فرد عليه عمر، زميله السابق في العمل والفكرة، بأن أطْلَقَ

سهماً على معسكر الحسين، وصاح:

«اشهدوا لي عند الأمير أني أول من رمىٰ»[1].

وهكذا بدأت وقعة عاشوراء.

---

(١) أبوه سعد بن أبي وقاص أول من رمى العدو بسهم في الإسلام.

الفهرس